المقتطف

ابو العلاء المعري

خاتم الفلاسفة وفيلسوف الشعراء

١ — موطنه وأسرته

الى جنوبي حلب الى بعد اثنتي عشرة ساعة منها بلدة صغيرة معتدلة الهواء قديمة عرفها الرومانيون باسم (كلمس) ثم عرفت بعدهم بذات القصور والى اليوم قضاء من اعمال حلب يعرف بقضاء معرة النعمان نسبة الى المعرة قصبته ولفظة المعرة سريانية تعني المغارة وليست في شيء من التفاسير التي عددها ياقوت الحموي في معجم البلدان ولقد زعم بعض المؤرخين انها سميت بمعرة النعمان نسبة الى النعمان بن بشير الانصاري بطل حمص الذي مرّ بها فمات له ولد ودفنه فيها فنسبت اليه وقد توفي النعمان سنة ٦٥ هـ (٦٨٤ م). وعندي ان رأي ياقوت في معجمه اقرب الى الصحة وهو انها نسبت الى احد اجداد المعريين وهو النعمان الملقب بالساطع ابن عدي بن غطفان بن عمرو بن بريح بن جذيمة بن تيم الله وهو تنوخ بن اسد بن وبرة بن تغلب بن حلوان بن عمران بن الحاف ابن قضاعة .

وتنوخ احدى القبائل الثلاث التي هي نصارى العرب وهم بهراء وتنوخ وتغلب اجتمعت هذه القبائل مع غيرها في البحرين وتحالفوا على التناصر والتآزر فلذلك سموا تنوخاً وتنوخ بنو الازدية تكون تنوخ حياً من بني قضاعة من عرب اليمن (والحق من الازد) خرجوا من مدينة مأرب الى البحرين بعد سيل العرم [١] ثم تفرقوا سنة في نواحي العراق والشام ونزل منهم النعمان زعيم قبيلته بالمعرة فنسبت اليه وهو اوجه الاقوال واطلبها

---

(١) راجع كتابي روائع الطوف صفحة ٩٢

فمعرة النعمان كانت حسنة منيعة كثيرة الحصون فتحها المسلمون في صدر الاسلام ثم استولى عليها الافرنج الصليبيون سنة ٤٩٢ هـ (١٠٩٨ م) واسترجعها المسلمون الى ايديهم سنة ٥٢٩ هـ (١١٣٤ م) وزارها ابن بطوطة وابن جبير وغيرهما من السياح وقالا انها كانت لعهدهما من اخصب بلاد الله واكثرها [illegible] ممتدة الى مسافة يومين وفيها الزيتون والتين والفستق وانواع الفواكه.

ولا تزال خصبة اليوم وتكثر فيها الزيتون والتين والزبيب والعسل وانواع الحبوب والقطن وفيها صناعة النسج والصباغة. ويوجد قرى كثيرة باسمها منها معرة مصرين قرب حلب ومعرة [illegible] من قضاء [illegible] في جبل الزيتون ومعرة صيدنايا من اعمال دومة وغيرها. والى المعرة ينسب كثيرون من العلماء اشهرهم ابو العلاء هذا وكذلك كثيرون من اسر مشهورة مثل الامراء الارسلانيين التنوخيين في لبنان وآل الجندي في حمص وغيرهم

وقد نشأ من التنوخيين في معرة النعمان سليمان بن محمد بن سليمان بن سلالة النعمان بن عدي المنتهي نسبه الى الحاف بن قضاعة [illegible] وهو جد المعري لابيه كان قاضياً في بلده ومن العلماء الافاضل في وقته وعرف ولده عبد الله والد المعري بالادب وكان شاعراً وتزوج امرأة من آل سبيكة مواطنيه الذين عرفوا بآدابهم وخدم الادب والمعارف [illegible] وقد ولد ابو العلاء في هذا البيت وخلاصة ذكائه وعجيب زبدة آدابه

نشأته

ولد ابو العلاء احمد بن عبد الله بن سليمان بن محمد بن سليمان التنوخي في معرة النعمان في بيت عرف بالادب والفضل ومن والديه من سلالة العلماء يوم الجمعة في ٢٧ ربيع الاول سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٣ م) ولما انفتحت عيناه لنور العالم ومشاهدة جمال الطبيعة حتى مرض بالجدري في الرابعة سنة ٣٦٧ هـ (٩٧٧ م) فاطفأت نورهما وردته الى ظلمة ثم وقد ذكا وقد انتحل شعراً [illegible]

[illegible] بنظر [illegible] [illegible] الا يهود

والله [illegible] السود [illegible] [illegible] العيون

وكثيراً ما كان يحول العاهة التي نكبته بحسده عليها اهل العصر. ولقد كانت له اسوة بكثير من كبار الشعراء والعلماء الذين اصيبوا بالعمى مثل هوميروس اليوناني

و[illegible] من برد المعرة [illegible] الذي [illegible] عن [illegible] الله [illegible] أوائل [illegible] قد غشي
يمنى حدقتيه بياض وذهبت اليسرى جملة [illegible] والجدري [illegible]
جداً وذلك بخلاف [illegible] الله [illegible] من [illegible] . وكان يقول لا أعرف
من الألوان إلا الأحمر لأني ألبست في الجدري ثوباً معصفراً . وكانت في وجهه ندوب
الجدري وهو نحيف الجسم [illegible]

قرأ النحو واللغة [illegible] إلى حلب وقرأ على محمد بن عبد الله بن سعد
النحوي فتمكن من آداب اللغة وطالع كتب المؤلفات بخزانة الكتب في حلب والشام
في [illegible] ونظم الشعر وهو ابن [illegible] سنة ولم يتكسب [illegible]
[illegible] نفسه [illegible] . ومصراً
[illegible] الاحتياج [illegible] والاعتزال . [illegible] في [illegible] من
من [illegible] وسياسة [illegible] . [illegible] في [illegible] داخلا
في شعره مذهب الفلاسفة وحرية الفكر والنظر [illegible] الكون [illegible] وكان [illegible]
[illegible] انظر [illegible] .

واتفق العلماء [illegible] فصار مرجع الأدباء [illegible] عليه
كثير من علماء عصره من أشهرهم أبو القاسم علي بن المحسن التنوخي . وأبو زكرياء الخطيب
التبريزي شارح الحماسة

وقد رحل في طلب الكتب والتوسع بالمعارف الى طرابلس الشام المشهورة بمكتبتها
العظيمة [illegible] وصل الى اللاذقية [illegible] من [illegible]
واطلع [illegible] مذهب اليهود والمسيحيين وكذلك قصد [illegible] بغداد وغيرها
[illegible] يحصل [illegible] (٢) [illegible] العام [illegible] من يجد له

---

[1] المقتبس [illegible] صديقنا احمد بك تيمور [illegible] القاهرة عن القدر الذي
كان يرزقه المعري فكتب إلينا ما نصه

واجمع [illegible] أبي العلاء الى داعي الدعاة [illegible] التي وعدتكم بها فكتبتها
لكم [illegible] وما [illegible] ترك الحيوان [illegible] السنة نيف وعشرون
ديناراً [illegible] التصرف على قول [illegible]
[illegible] عدي [illegible] هين
[illegible] والسلام)

فعورض في رزقه فذهب الى بغداد متظلماً ممن عارضه سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) ثم عاد اليها ثانية سنة ٣٩٩ هـ (١٠٠٨ م) واقام فيها سنة وسبعة اشهر فتفقد مكاتبها وتعرف بعلمائها ودرس عليه كثير منهم قال ابو القاسم التنوخي: لما ورد المعري بغداد قرأت عليه شعره وذكر انه دخل عليه وهو في بغداد علي بن عيسى الربعي ليقرأ عليه شيئاً من النحو فقال له الربعي: ليصعد الاصطبل فخرج مغضباً ولم يعد اليه . ويروى انه دخل يوماً مجلس المرتضى فعثر بانسان فقال له: من هذا الكلب فقال المعري: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسماً وله اخبار كثيرة لا محل لاستيفائها

ومن اشعاره في غربته يحن الى وطنه قوله :

فيابرق ليس الكرخ داري وانما رماني اليها الدهر منذ ليالــ
فهل فيك من ماء المعرة قطرة تغيث بها ظمآن ليس بسالــ

وقوله :

ياماء دجلة ما اراك تلذ لي شوقاً كماء معرة النعمان

وعاد ابو العلاء من بغداد الى المعرة سنة ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ م) ولزم بيته وشرع في التصنيف والتدريس فتقاطر اليه الادباء من كل صوب مقتبسين من آثاره وكاتبه العلماء والوزراء واهل الاقدار فانقطع الى خدمة الآداب وسمى نفسه رهين المحبسين للزوم بيته وذهاب عينيه كما صرح في ذلك بقوله :

اراني في الثلاثة من سجوني فلا تسأل عن الخبر النبيث
لفقدي ناظري ولزوم بيتي وكون النفس في الجسد الخبيث

وكان يلعب الشطرنج والنرد (الطاولة) . ويملي على بضع عشرة محبرة في فنون من العلم وولع بالعلوم الرياضية واتقنها وله كثير من الابيات الرياضية مثل قوله :

طرق العلى مجهولة فكأنها صم العوائد مالها أجذار
والعقل أنذرنا بما هو كائن في الدهر ثم تشعب الانذار

وعلى الجملة فان المعري كان غزير الفضل وافر الادب عالماً باللغة خبيراً من آدابها حسن الشعر جزل الكلام قوي الذاكرة شديد الذكاء

٣ — حافظته ونوادره ووفاته

اشتهر ابو العلاء بقوة الحافظة اشتهاراً عظيماً فاق فيه بديع الزمان الهمذاني وغيره

وربما زاده حفظًا العمى فانه يجمع الذهن ويقوي المخيلة · ومما يروى عنه انه جرى حساب طويل بين رجلين في مكان تشرف عليه غرفته فسمع الحساب وحفظه · ثم ضاعت الاوراق فسألاه اياه فأملاه عليهما ووجدت الاوراق بعد ذلك فكانت طبق إملائه ·

وأعجب من هذا انه كان يومًا عند يهودي فأتاه يهودي آخر واستودعه صرة · ثم جاء يطلبها بعد سنة فانكرها فرافعه الى القاضي ولم يكن بينهما شهود الا المعري فاستقدمه القاضي وسأله · فقال : اني رجل اعمى لم ابصر ما كان بينهما · ولكنني سمعت كلامًا بالعبرانية اذكر لفظه ولا اعرف معناه · فدعا القاضي يهوديًا خالي الذهن من القضية واعاد عليه الشيخ ذلك الكلام فاذا هو يؤذن بصحة الدعوى

وأنشده مرة ابو نصر المنازي قوله :

وقانا لفحة الرمضاء وادٍ سقاه مضاعف الغيث العميم
نزلنا دوحه فحنا علينا حنوّ المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمإٍ زلالا ألذّ من المدامة للنديم
يصد الشمس أنّى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم
تروع حصاه حالية العذارى فتلمس جانب العقد النظيم

فقال له ابو العلاء : انت اشعر من بالشام · وطويت الايام على قوله هذا فلما رحل الى بغداد انشده المنازي ايضًا :

لقد عرض الحمام لنا بسجع اذا أصغى له ركب تلاحى
شجى قلب الخلي فقيل غنى وبرّح بالشجي فقيل ناحا
وكم للشوق في احشاء صب اذا اندملت اجد لها جراحا
ضعيف الصبر عنك وان تقاوى وسكران الفؤاد وان تصاحى
بذاك بنو الهوى سكرى صحاة كأحداق المها مرضى صحاحا

فقال له ابو العلاء · ومن بالعراق عطفًا على قوله قبلًا (انت اشعر من بالشام) الى غير ذلك وكان يقصده كثير من العلماء المتعارف بهم وممن نزل بالمعرة القاضي عبد الوهاب البغدادي فمدحه المعري (راجع ابن خلكان ١ : ٤٣١)

ومن نوادره ان الوزير ابا الفضل التميمي الفارسي البغدادي اجتمع بابي العلاء هذا في بلدته المعرة لما بعثه القائم بأمر الله العباسي من بغداد رسولا الى صاحب افريقية

المعز بن باديس وانشده قصيدة لامية يمدح بها صاحب حلب [illegible] عنه أنت من [illegible]

ولقي يوماً غلاماً فسأله عن [illegible] بن [illegible] ، فسأله الغلام عن اسمه فعرفه ، فقال له أأنت القائل :

واني وان كنت الاخير زمانه   لآت بما لم تستطعه الاوائل

قال : نعم . قال : ان الأوائل وضعوا ٢٩ حرفاً للهجاء فهل لك ان تزيد عليها حرفاً فسكت وقال لرفيقه : ان هذا الغلام لا يعيش لشدة ذهنه وهكذا كان

وبقي ابو العلاء متعطشاً الى التدريس حتى مرض ثلاثة ايام ومات في الرابع منها ولم يكن عنده غير بني عمه فقال لهم في اليوم الثالث من مرضه : اكتبوا عني . فتناولوا الدوي والاقلام فأملى عليهم غير الصواب فقال القاضي ابو محمد عبدالله التنوخي : احسن الله عزاءكم في الشيخ فانه ميت . فمات يوم الجمعة ثالث ربيع الأول سنة ٤٤٩ هـ (١٠٥٨ م) بالمعرة . وفي طبقات ابن الانباري انه توفي سنة ٤٩٩ وهو خطأ . وقبره في ساحة من دور اهله وعلى الساحة باب صغير قديم وهو مهمل . وقد اوصى ان يكتب على قبره :

هذا جناه ابي علي (م) وما جنيت على احد

والمشهور انه مكتوب على قبره :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة   مكنونة صاغها الرحمن من شرف
عزت فلم تعرف الايام قيمتها   فردها غيرة منه الى الصدف

وقرئ على قبره سبعون مرثية ورثاه نحو ٨٠ شاعراً

٤ — اخلاقه ومعتقده

كان المعري حاد الذهن عصبي المزاج فضاق خلقاً في آخر ايامه لأن العمى يورث الضجر وكثرت مصائبه فاشتد حزنه واكثر الشكوى وسوء ظنه بالناس والدليل قوله :

من عاش غير مداج من يعاشره   اساء عشرة اصحاب واخدان
كم صاحب يتمنى لو نعيت له   وان تشكيت راعاني وفداني

وقوله : توحد فان الله ربك واحد   ولا ترغبن في عشرة الرؤساء
يقل الاذى والعيب في ساحة الفتى   وان هو اكدى قل الجلساء

وكان من الصحيح [illegible] سريرته في ظاهره . ولذلك قال :

[illegible] أن أكون مدلساً فهيهات عندي آخر التدليسا

ويرى العقل [illegible] كقوله :

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً تجاهلت حتى ظن أني جاهل
فواعجبا كم يدعي الفضل ناقص ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

وكان متواضعاً يعتبر الكبرياء [illegible] قال :

[illegible] ولكن الصحيح لم القول

ولبث نحو ٤٥ سنة منقطعاً عن أكل اللحوم والبيض واللبن مقتصراً على أكل النباتية لأنه كان يذهب مذهب بعض الفلاسفة الذين لا يغتذون الحيوانات بالجملة وقال ابن الأثير إنه كان يرحمها . وقيل إنه وصف له الفروج وهو مريض فلما أتي به جسه بيده وقال : استضعفوك فوصفوك . وإلى ذلك أشار تلميذه أبو الحسن علي بن همام في مرثاة له بقوله :

إن كنت لم ترق الدماء زهادة فلقد أرقت اليوم من عيني دما

وكان يذهب مذهب الهنود في انتقال الأرواح بعد الموت كما يرى [illegible] في عصرنا بدليل قوله :

[illegible] (١) [illegible] روحة ولا تستقر
[illegible] وسوف [illegible] لمنكر ونكير

وقوله :

[illegible] نكير ومنكر وضغطة [illegible]

ومن أقواله السياسية التي يصدح بها [illegible] في هذه الأيام قوله (١) :

[illegible] إن لم تجد [illegible] داره
[illegible] إن [illegible] سقوط جداره

ومن مذهبه الشوري بدليل قوله :

مل المقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها فعدوا مصالحها وهم أجراؤها

ومنه كرهه للمدح وذلك قال :

اذا اثنى عليّ المرء يوماً   بخير ليس فيّ فذاك هاجي
وحقي ان اساء بما افتراه   فلؤمٌ من غريزتي ابتهاجي

ومن مبادئه التثبت عند حلول النوائب كما قال :

غير مجد في ملتي واعتقادي   نوح باك ولا ترنم شاد
وشبيه صوت النعي اذا قيـ   ـس بصوت البشير في كل ناد
ابكت تلكم الحمامة ام   غنت على فرع غصنها المياد

وذهب مذهب القائلين ان وجود الولد جناية فلم يتزوج بدليل ما اوصى ان يكتب عَلَى قبره وبدليل اقوال له كثيرة منها :

عَلَى الولد يجني والد ولو انهم   ولاة عَلَى امصارهم خطباء

وربما كان متردداً في البعث والمعاد والخلود ولكن اعتقاده بها اكثر من انكاره لها ومن قوله :

ايها الملحد لاتعص النهى   فلقد صح قياس واستمر
ان تعد في الجسم يوماً روحه   فهو كالربع خلا ثم عمر

ولذلك الف بعضهم كتاباً في الدفاع عنه سماه (دفع المعرة عن شيخ المعرة) والف كمال الدين بن العديم كتاب (دفع التجري عن المعري) وكتبت مقالات كثيرة في تبرئته مما نسب اليه من الزندقة

٥ — شعره

يكفي في وصف شعر المعري ان يقال في تعظيمه انه فيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة وقد تصرف فيه تصرفاً غريباً وسرح خياله في العوالم العلوية والسفلية فمثلها احسن تمثيل وحرص الناس عَلَى شعره فجمع في ثلاثة دواوين (لزوم مالا يلزم) (وسقط الزند) (وضوء السقط) وقد قلت فيها موريا

ومبذرق نظر القيافة جاءني   والنار قربي بالتقاب يضرم
مذ قال هذا ضوء سقط الزند قلـ   ـت له اراه لزوم مالا يلزم

ومنها انتخب الآن مايدل عَلَى مسرح خيال المعري وحسن وصفه ودقة فكره وقوة بصيرته فمن اقواله يصف السهر والليل من قصيدة :

بانت عرى النوم من عيني مخلفة   وبات كوري عَلَى الوجناء مشدودا

كأن جفني سقطا نفر فزع   اذا اراد وقوعاً ريع او ذيدا
ظن الدجى قنة الاخفار كاسرة   والصبح نسراً فما ينفك مزؤودا
تناعس البرق اي لا استطيع سرى   فنام صحبي وامسى يقطع البيدا
كأنه غار منا ان نصاحبه   وخاف ان نتقاضاك المواعيدا
من يخبر الليل اذ جنت حنادسه   والرمل عني لما حل او جيدا
اني أراح لاصوات الحداة به   والركائب يخبطن الجلاميدا
كأنهن غروب طلوعها تعب   فهن يمنحن بالارسان تغريدا

ومن حماسياته قوله من قصيدة :

يتهللون طلاقة وكلومهم   يتهل منهن النجيع الاحمر
لايعرفون سوى التقدم آيبا   فجراحهم بالسمهرية تسبر
من كل من لولا تسعر بأسه   لاخضر في يمنى يديه الاسمر
يذكي تلهب ذهنه ابوانه   فكأنما هو بالغدو مهجر
وضجيج خلفهم الحسام وان ثوى   منهم فتى ثم المهند يثير
فكأنهم يرجون ايا ربهم   بالبيض تشفع عنده وتكفر
اقامن اقام الحرف وهي كأنها   نون بدارك والعلام أسطر

وقال من قصيدة أخرى في الغنى والفقر :

وان الغنى والفقر في مذهب النهى   لسيان بل اغنى من الثروة العدم
وماالفت مالا قط الا ومال بي   ولا درهما الا ودر بي الهم
لك الخير قد افقدت ما هو ملبسي   حياء وعند الله من قال علم
ولو انه اضعاف اضعاف مثله   من التبر لم يثبت له في نداك اسم
واهون به في راحة اريحية   كآخر ماض ليس من شأنه الضم
فمني تقصير ومنك تفضل   بعذر فلا حمد لديه ولا ذم
فلو كنت شعراً كنت احسن منشد   سليم القوافي لازحاف ولاخرم

وقال ايضاً من قصيدة أخرى :

تقول ظباء الحزم والدمع ناظم   تحلّى عقد الوعساء عقد ضلال
لقد حرمتنا اثقل الحلي أختنا   فما وهبت الا سموط لآلي
فان صلحت للناظمين دموعنا   فلتن منها بالكثيب حوالي

جهلتم ان اللؤلؤ الدون عندنا رخيص وان الجامدات غوالي
ولو كان حقاً ما ظننتم لاغتدت مسافة هذا البرسيف اوال[1]

وقال في نار القرى :

الموقدي نار القرى الآصال والا سحار بالاهضام والاشعاف
حمراء ساطعة الذوائب في الدجى ترمي بكل شرارة كطراف

وقال في خلاء الفكر للنظم والنثر :

ولولا ما تكلفنا الليالي لطال الاول واصل الروي
ولكن التراخي له معان واولاها به التفكر الحلي

وقال في التوجيه البديعي :

فدونكم خفض الحياة فاننا نصبنا المطايا في الفلاة على الضم

وقال ايضا :

حروف سرى جاءت لمعنى اراده ترتني اسماء لهن وافعالا

وقال : ولو جرت النباهة في طريق الـ خمول الي لاخترت الخمولا

وقال : قصروني تغيرني زماني سيعقبني بحذف وادغام

وقال من قصيدة :

وليلا تلحق الاهوال فيه بفود الشيخ ناصية الغلام
اذا نشروا الرحيل فكل غر يرى صرعاته للحي اغتنام
كأن جفونه عقدت برضوى فما يرفعن من سكر المنام
لو ان حصى المناخ مدى حداد ازورتها الصخور من السآم
وجاز الي البرادب هجير يجوز من القراب الى الحسام
برد معاطس الفتيان سفعا وان ثني اللثام من اللثام
اذا احربه الهجر دين كسرى فصلى والنهار اخو الصيام
واذوات الجلابب في ضحاها اذانا غير منتظر الامام

وقال : وكم لك من اب وسم الليالي عَلَى جبهاتها سمة اللئام
مضى وتعرف الاعلام فيه غنى الوسم عن الف ولام

وقال : لفظ كان معاني السكر تسكنه فمن تحفظ بيتا منه لم يفق

---

(١) مغاص لؤلؤ في البحر الاحمر

فرتب النظم ترتيب الحلي تجي تخص الحلي بلا طيش ولا خرق
الخجل [1] الرحل، التاج المنيف لما فوق الحجاج [2] وعقد الدر للعنق
فان توافق في معنى بنو زمن فان جل المعاني غير متفق
قد يبعد الشيء من شيء يشابهه ان السماء نظير الماء في الزرق
وقال : ارى الهند سيفاً والقريض نجاده ولولا نجاد السيف لم يتقلد
وخير حمالات السيوف حمائل تخف بابكار الثناء المخلد
وقال : كأن كل جواب أنت ذاكره شنف يناط بأذن السامع الواعي
وقال : وكلامك المرآة تصدق في الذي تحكي وانت الصارم المصقول
وقال : فيا قبر واه من ترابك لينا عليه وآه من جنادلك الخشن
لاثبت إضباق الغيرة المحتفظ بلؤلؤة المجد الحقيقة بالخزن
وقال : وليلة سرت فيها وابن مزنتها كميت عاد حياً بعدما قبضا
كأنما هي اذ لاحت كواكبها خود من الزنج تجلى وشحت خضضا
كأنما النسر قد قصت قوادمه فالضعف يكسره عن كل ما نهضا
والبدر يحتث نحو الغرب أينقه فكلما خاف من شمس الضحى ركضا
ومنهل ترد الجوزاء غمرته اذا السها كان شطر الغرب معترضا
وردته ونجوم الليل وانية تشكو الى الفجر ان لم تطعم الغمضا
وقال : وأرى ابا الخطاب نال من الحجى حظاً زواه الدهر عن خطابه
لأبيلس كلامه متشبه في الدر يمتنع على طلابه
أثنى بما من ارتجاله شأوه غني تقييد لفظه بكتابه
كم كدر الغامد يحسن تحته معنى حسن الماء تحت حبابه
فتشوقت شوقاً الى نعاته أفهامنا وربت الى آدابه
والنحل ما عكفت عليه طيوره الا لما عاينه من ارطابه
ردت ظلاله وحدة ذهنه وحمى الفلك اواماً بحظابه
والظل يحمي الرأس من نور الربى فيصير شهداً في طريق رضابه

وقال ملغزاً في الابرة

سعت ذات سم في قميصي فغادرت به اثراً والله يشفي من السم

---

(١) الطحال (٢) منبت شعر الحاجب

كست قيصراً ثوب الجمال وتبعاً وكسرى وعادت وهي عارية الجسم

وقال وقد ابدع في تشبيه الليل والبرق :

كما أغضى الفتى ليذوق غمضاً فصادف جفنه جفناً قريحاً
اذا ما اهتاج احمر مستطيراً حسبت الليل زنجياً جريحا

وقال وقد ابدع :

ياسعد اخبية الذين تحملوا لما ركبت دعيت سعد المركب
غادرتني كبنات نعش ثابتاً وتركت قلبي مثل قلب العقرب

وقال : لاتطلبن بآلة لك حاجة قلم البليغ بغير حظ مغزل
سكن السماكان السماء كلاهما هذا له رمح وذلك اعزل

وقال : ولاتجلس الى اهل الدنايا فان خلائق السفهاء تعدي

وقال يصف انعكاس صورة السماء ونجومها في مرآة الماء

فأطمعن في اشباههن سواقطاً على الماء حتى كدن يلقطن باليد
فمدت الى مثل السماء رقابها وعبت قليلا بين نسر وفرقد

وقال: أطرق كأنك في الدنيا بلا نظر واصمت كأنك مخلوق بغير فم
وان هممت بمين فاتخذ لفماً(١) مضاعفات لتثني اللفظ باللفم

وقال في ذم الدنيا من ابيات :

وقد نطقت بأصناف العظات لنا وأنت فيما يظن القوم خرساء
يموج بحرك والاهواء غالبة لراكبيه فهل للسفن إرساء
اذا تعطفت يوماً كنت قاسية وان نظرت بعين فهي شوساء

وقال: ان الاعلاء ان كانوا ذوي رشد بما يعانون من داء اطباء
وماشفاك من الاشياء تطلبها الا الألباء لو تلقى الألباء
نفر من شرب كاس وهي تتبعنا كأننا لمنايانا أحباء

وقال يصف الشباب: ان الشبيبة نار ان اردت بها أمراً فبادره ان الدهر مطفئها

وقال : اذا فعل الفتى ما عنه ينهى فمن جهتين لاجهة أساء

وقال في النساء :

علموهن الغزل والنسج والرد ن وخلوا كتابة وقراءه

---

(١) اللفم بالفاء اللثام وهو ما على طرف الانف من النقاب

فصلاة الفتى بالحمد والاخلاص   تجزي عن يونس وبراءه
تهتك الستر بالجلوس أمام الستر   ان غنت القيان وراءه

وقال في أدب الاخلاق :

اذا صاحبت في ايام بؤس   فلا تنس المودة في الرخاء
ومن يعدم اخوه على غناه   فما ادى الحقيقة في الاخاء
ومن جعل السخاء لاقربيه   فليس بعارف طرق السخاء

وقال :

القلب كالماء والاهواء طافية   عليه مثل حباب الماء في الماء
منه تنم[1] ويأتي مايغيرها   فيخلف العهد من هند واسماء
والقول كالخلق من سيء ومن حسن   والناس كالدهر من نور وظلماء

وقال :

بنافي ابن آدم حال الغصون   فهاتيك أجنت[2] وهذا جنى[3]
تغير حناؤه شيبه   فقل غير الظهر لما انحنى[4]

وقال: ان تستقيم امور الناس في عصر   ولا استقامت فذا أمناً وذا رعبا
ولا يقوم على حق بنو زمن   من عهد آدم كانوا في الهوى شعبا
وقال: يعدو على خله الانسان يظلمه   كالذيب يأكل عند الغرة الذيبا
وقال: تقادم عمر الدهر حتى كأنما   نجوم الليالي شيب هذي الغياهب

وقال في النمام :

وانك ان اهديت لي عيب واحد   جدير الى غيري بنقل عيوبي

وقال في الرياء :

والخل كالماء يبدي لي ضمائره   مع الصفاء ويخفيها مع الكدر

وقال في فساد الناس :

عرفتكم بني حواء قدماً   فكلكم أخو غش مكور
وما فيكم على الاحسان جار   ولا منكم لذي النعمى شكور

---

(١) ظهرت (٢) ادركت ونضجت (٣) اي الثمر ونحوه (٤) وهو بمعنى قول الآخر

يا من يدلس بالخضاب مشيبه   ان المدلس لايزال مريبا
هب ياسمين الشيب عاد بنفسجاً   أيعود عرجون القوام قضيبا

وقال: صدق الطبيب عن الطعا م وقال قولاً كله بصر
كل بالطبيب ولا خلا ص من الردى فلينتظر

وقال: مثل الفتى عند التغرب والنوى مثل الشرارة ان تفارق نارها
ان صادفت ارضاً أرتك خمودها أو وافقت اكلاً أرتك منارها

وقال: وان اقتناع النفس من احسن الغنى كما ان سوء الحرص من اقبح الفقر

وقال: وما لونت الا اثر بأخذ المدى فبادره اذ كل النهى في بداره
رأتك البرايا ظالماً يا ابن آدم وبئس الفتى من جار عند اقتداره

وقال: اضرب وليدك تأديباً على رشد ولا تقل هو طفل غير محتلم
فرب شق برأس جر منفعة وقس على شق رأس السهم والقلم

وقال: النفس عند فراقها جثمانها محزونة كالورس ربع بامس
كحمامة صدت فتش قيدها اسفاً لتنظر حالك وكر دامس

ولقد نسبه بعضهم الى الكفر لقوله:

ضحكنا وكان الضحك منا سفاهة وحق لسكان البسيطة ان يبكوا
تحطمنا الايام حتى كأننا زجاج ولكن لا يعاد لنا سبك

ولكنه قال ايضاً في محل آخر:

خلق الناس للبقاء فضلت امة يحسبونهم للنفاد
انما ينقلون من دار اعمال الى دار شقوة او رشاد

وقال ايضاً:

فاني وجدت النفس تبدي ندامة على ما جنته حين يحضرها العقل
وان صدئت ارواحنا في جسومنا فيوشك يوماً ان يعاودها الصقل

وقد تهكم في قوله ايضاً:

ته النصارى والحنيفة ما اهتدت ويهود حيرى والمجوس مضلله
قسم الورى قسمين هذا عاقل لا دين فيه ودين لا عقل له

والمرجح انه كان متردداً في مذهبه وربما كان اقراره بالدين في اخريات ايامه كيف لا وهو القائل:

عجبي للطبيب يلحد في الخا لق من بعد درسه التشريحا
ولقد علم المنجم ما يو جب للدين ان يكون صريحا

رب روح كطائر القفص المسجون   ترجو بموتها التسريحا

ومن ذلك قوله :

اذكر الهك ان هببت من الكرى   واذا هممت بهجعة ورقاد
واحذر مجيئك في الحساب بزائف   فالله ربك الملك النقاد
تخشى جهنم دمعة من تائب   فتروح[1] وهي شديدة الايقاد

وقوله : ازول وليس في الخلاق شك   فلا تبكوا عليّ ولا تبكوا

وقوله : لا ييأس من الثواب مراقب   لله في الايراد والاصدار
تترى بدائع آيات متحدثة   ان الجزاء بغير هذي الدار

وشعره كله نمّ هذا النمط من حرية الفكر والشكوى وله من القصائد الفخرية المشهورة وغيرها ما نجتزئ عن ذكره الآن ومن نوادر قصائده ما نشرته مجلة المقتبس (٣:٩٧ و٤:٦٦٦) . وفي الجملة فان المعري دقيق التصور حتى يمثل لك احياناً اموراً لا يستطيع تمثيلها المصور وهاك الآن من فكاهاته ما يدلك على سمو مخيلته من قوله في الفجر :

كأن سنا الفجرين لما تواليا   دم الاخوين زعفران وايدع
الامس على تاليها الصبح ماؤه   فغير من الشراق احمر مشبع

وقوله : كأن الليل حاربها ففيه   هلال مثل منعطف السنان
ومن ام النجوم عليه درع   يحاذر ان يمزقها الطعان
وقد بسطت الى الغرب الثريا   يداً تلقت باقلها الرهان
كأن يمينها سرقتك شيئاً   ومقطوع على السرق البنان

وقوله يرتد عن القبلي اذ كل غارة   يكون لها عند الصباح توالي
ولاح هلال مثل نون اجادها   بجاري النضار الكاتب ابن هلال

ولقد اعتنى كثير من الافرنج بجمع اشعاره وترجمتها الى لغاتهم مثل كارليل (Carlyle) المستشرق الانكليزي استاذ العربية في جامعة كمبردج في اواخر القرن الثامن عشر فانه ترجم بعض ابيات باللاتينية والانكليزية . وهكذا فعل المستشرق النمساوي فون كريمر Von Kremer فانه نشر مقالات كثيرة في (المجلة الجرمانية الآسيوية) عن ابي العلاء وافكاره وشعره خصوصاً سنة ١٨٧٧م ثم الف كتاباً

---

(١) تخمد

بعنوان (اشعار ابي العلاء المعري الفلسفية) طبع في لندن سنة ١٨٨٨ نقل فيه نثراً اكثر من مائتي بيت من شعر المعري . ثم ترجم رباعياته بالانكليزية نظماً صديقي امين افندي الريحاني اللبناني بكتاب انتخبه من دواوينه الثلاثة وطبع في نيويورك سنة ١٩٠٣ في ١٤٤ صفحة صدره بمقدمة بحث فيها عن ابي العلاء وسيرته ومن رأيه ان عمر الخيام الشاعر الفارسي قد تحداه وهما متعاصران . واختار موسى افندي بيكييف من افاضل قازان (روسيا) منتخبات من لزوميات المعري ونقلها الى التركية في نحو مائتي صفحة مطبوعة في اورنبورغ سنة ١٩٠٨ م . واعتنى كثير من القدماء بدواوينه فان عبد الله بن السيد البطليوسي النحوي الاندلسي شرح سقط الزند شرحاً استوفى فيه المقاصد وهو اجود من شرح ابي العلاء صاحب الديوان المسمى بضوء السقط . وكذلك التبريزي خريج المعري شرح سقط الزند .

وكان حسين بن الجزري شاعر بني سيفا امراء طرابلس الشام مغرماً بالمعري فكتب على ديوانه لزوم ما لا يلزم

ان كنت متخذاً لروحك مرشداً فكتاب رب العالمين الزم
او كنت مصطحباً حبيباً سالكاً سبل الهدى فلزوم ما لا يلزم

ودواوينه الثلاثة مطبوعة في مصر وسورية . وقد قابلت مجلة المقتطف الغراء بينه وبين ملتون الشاعر الانكليزي الضرير صاحب (الفردوس الضائع) راجع السنة العاشرة صفحة ٤٤٩ ومجلة الهلال الغراء ترجمته في السنة الخامسة عشرة صفحة ١٩٥ . وترجمه رضاء الدين افندي بن فخر الدين من علماء اورنبورغ في روسية بالتركية التترية في ٧٢ صفحة طبعت في المدينة المذكورة سنة ١٩٠٨ . وغيرهم

ولقد كان المعري والمتنبي وابن هاني ممن اختطوا خطة جديدة في الشعر لم ترق في عيون الواقفين على الاسلوب القديم فلذلك لم يسمحوا للمترشحين النظم ان يتعدوهم كما في مقدمة ابن خلدون وغيرها فالمعري اشبه بفكتور هيكو عند الافرنسيين وكذلك صنوه .

٣ — نثره وكتبه

اهم ما وصل الينا من نثر المعري رسائله التي نشرت في بيروت سنة ١٨٩٤ مشروحة بقلم الاستاذ شاهين عطية اللبناني في ٢٤٠ صفحة . وفيها تكلف غريب واغراب في النثر لم تألفه العامة واليك الآن أمثلة منها تعرفه عند القراء :

فمن نثره قوله من رسالة «ان كان للآداب أطال الله بقاء سيدنا نسيم يتضوع ، وللذكاء نار تشرق وتلمع ، فقد نفحنا حتى بعد الدار أرج أدبه ، ومحا الليل سنا ذكائه بتليه ، وحول الاسماع شنوفاً غير ذاهبة ، وانطبع في سويداوات القلوب كواكب ليست بغاربة .» ومما كتبه الى صديق له يسأله ان ينفعه في ترتيب المكاتبة «وقد أيقنت ان رسل نصيحته ليس بغدار ، وان صواب رأيه عن غير ائتمار ، ولما كتب في امر الى فلان الا متشكراً ثم ثنيت استزادة المعونة مذكراً ، اذ كان ادام الله عزه لا يشير لسائله الى الوقت البعيد ، ولا يضرب لراجيه رؤوس المواعيد» وكتب الى ابي القاسم المغربي جواباً عن فصل كتبه اليه وهو رسمه «كلامه جنبري بالهمود ، واشرفت على الخمود ، فنشني الله بسلام يرد من حضرته يجعل ثري كالروضة الحزنية ، والبارقة المزنية ، ولو كنت من نفسي راضياً ، لشرفتها بزيارة حضرته ، ولكني عنها غير راض ، وما أقرني الى انقراض ، ولقلما قضيت التراد ، وتخلف المراد ، قد عددت في اناس قيل فيهم تلك امة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، فان نعمت او نعيت ، فدعائي بطول حضرته ما بقيت له» وكتب من رسالة «لو اتصلت كتب مولاي كاتصال الامطار وتوالت توالي الانفاس لكنت بوليها أسر مني بوسميها ، والى مستأنفها أشوق مني الى سالفها ، وما يكتب الا في بر ، ولا يحث حتى غير الفاتحة في الجهر والسر ، وما ادري ما اقول في السعادة التي قد رزقتها عنده حتى غطت معايبي ، وسترت الاساءة التي أصرت بي ، فلا انكر بعدها ان تعد نفثات الدر لام الادراس ، وان تضاع مناطق الذهب الرياح ، وان يدعى المدعون ان ريش ابن انقد مهم صابة ، وفتوات يربيه .... » وقد اطال في بعض رسائله حتى ان المطالع يمل مطالعتها ولا يتجلد ليتم قراءتها واخصر رسائله ما ختمها بقوله

«كانت كتبي اليه كبارح الأروى تكون في الدهر مرة ، والآن صارت كسوانح الغربان وبوارح الظباء

تكاثرت الظباء على خراش فما يدري خراش ما يصيد

ومن الحقف قد اوى» ما قال بشار ، وليس بالحقف مثل الرد ، وعليه سلام لو كان يوماً لكان يوم عرفة ، لو شهراً لكان ثالثاً اي شهر رمضان والسلام وحسبي الله وحده» وقد عني بطبع رسائل المعري هذه الاستاذ مرغليوث وترجمها بالانكليزية معلقاً عليها شروحاً مفيدة من ادبية وتاريخية مصدرة بترجمة المؤلف للمؤرخ شمس الدين الذهبي معتمداً على

نسخة في مكتبة ليدن قابلها على نسخة بيروت المشار اليها وقال انها ينقصها تسع رسائل وبعض العاشرة .

ومن نثره الذي بين ايدينا الآن (رسالة الغفران) وهي التي وصفها شمس الدين الذهبي في ترجمة المعري بقوله «له رسالة الغفران في مجلدة قد احتوت على مزدكة واستخفاف وله رسالة الملائكة ورسالة الطير على ذلك الانموذج» ارسلها الى علي بن منصور الحلبي المعروف بابن القارح [1] صدرها باشواق وتحيات ثم اشار الى وصول رسالته اليه واثنى عليها ثم استطرد الى وصف الجنة ونعيمها ومن دخلها من الشعراء والملائكة على اسلوب اشبه بالشعر القصصي الروائي عند الافرنج اليوم جاء بعده باكثر من قرنين دانتي شاعر الايطاليين ونسج على منوالها (الرواية الالهية) وملتون شاعر الانكليز (الفردوس الضائع) وغيرهما ولكنهما لم يجريا في اللغة مثله . وقد طبعت رسالة الغفران مصححة على الشيخ ابرهيم اليازجي [illegible] في مصر سنة ١٩٠٧ م في ٢١٣ صفحة . ولها نسختان مخطوطتان احداهما في المكتبة الخديوية بمصر والثانية في مكتبة الكوبرلي في الاستانة . ولا بأس ان ننتخب منها الآن قوله في الشعر صفحة ٥٥ : «فقال وما الاشعار فاني لم اسمع بهذه الكلمة قط الا الساعة . فقلت الاشعار جمع شعر . والشعر كلام موزون تقبله الغريزة على شرائط ان زاد او نقص ابانه الحس . وكان اهل العاجلة يتقربون به الى الملوك والسادات فجئت بشيء منه اليك لعلك تأذن لي بالدخول في هذا الباب» ومن قوله في اللغة صفحة ٩٣

«والباب فيما كان مضاعفاً متعدياً ان يجيء بالضم كقولك عددت اعد ورددت ارد وقد جاءت اشياء نوادر كقولهم شددت الحبل اشد واشد ونممت الحديث انم وانم وعللت القوم اعل واعل . واذا كان غير متعد فالباب الكسر كقولهم حل عليه الدين يحل وحل الامر يحل . والضم في غير المتعدي اكثر من الكسر فيما كان متعدياً كقولهم شح يشح ويشح وشب الفرس يشب ويشب وصح الامر يصح ويصح وفحت الحية تفح وتفح وجم الماء يجم ويجم وجد في الامر يجد ويجد في حروف كثيرة اه»

وللمعري مؤلفات كثيرة غير ما ذكر اشار اليها الحاج خليفة في كشف الظنون اهمها ظهير العضدي في النحو . والفصول والغايات . و[illegible] الغايات . وكتاب الفصول . وكتاب

---

(١) وقد اراني صاحب مجلة المقتبس نسخة من رسالة ابن القارح هذه سينشرها قريباً .

السادن · وقاضي الحق · والقائف على مثال كليلة ودمنة وتفسير منار القائف · ومجح الاسرار · وملقى السبيل في المواعظ · والمواعظ الستية ونظم السور · والحقير النافع في النحو · وخطب الخيل عن السنتها · ورسائل المعونة · والصاهل والشاحج · وزجر النابح يتعلق بلزوم ما لا يلزم · والسجعات العشر في الوعظ · وسجع الحمائم · والسجع السلطاني في مخاطبات الملوك والوزراء · وسجع الفقيه · وسجع المضطرين عمله لرجل تاجر يستعين به على دنياه · وشرف السيف عمله لامير الجيوش · واعظم مؤلفاته الايك والغصون او الهمزة والردف لم يغادر فيه صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والادب الا احصاها يقع في الف ومائتي كراس وربما بلغ اربعين مجلداً من كتبنا اليوم · الى غير ذلك مما يغني قليله عن كثيره

فهذا شيخ المعرة وفيلسوف الشعراء وشاعر الفلاسفة وهذه آثاره التي حقها فلا رحمه الله تنشد قول ابي الفتح حصينة المعري فيه :

وتعجبت ان تسع المعرة قبره ويضيق بطن الارض عنه الاوسع
لو فاضت المهجات يوم وفاته ما استكثرت فيه فكيف الادمع

زحلة (لبنان) عيسى اسكندر المعلوف

* * *

نظرة في النظرات

تتمة ما ورد في الجزء الماضي

اراد المنفلوطي في كلامه هذا ان يخطئ الامام بأن ما دعا اليه من المبادئ الدينية لم يحن بعد وقتها وان سواد هذه الامة لم يتأهلوا لقبول هذه المبادئ جاعلاً ذلك علة الفشل في اعتقادهم ومروقهم من الدين وهو قياس منطقي أُعيذ المنفلوطي عن ان يجنح بفكره بمثله من الاوهام والخيالات التي ابان فيها عن فكر ليس له حظ من التجربة والاختبار ·

لا يستطيع صاحب النظرات مع ما علم ان ينكر ان جل الدعاة ان لم اقل كلهم انجبهم الدهر وولدتهم العصور في اوقات كانت فيها الافكار حيرى يقارع بعضها بعضاً في ميدان الحياة · ومن هنا نعلم الحاجة الماسة الى المرشدين في مثل هذه الاحوال الحرجة والمآزق الضيقة وانهم متى قاموا بفكرة اصلاحية لا بد ان يلاقوا في طريقهم من عثرات الطريق العوائق ما يستهدفون معه لضروب الايذاء فيقومون بين مخالب الطعن والنقد حتى تتسرب